مقاصد القرآن في بناء الفكر العمراني

عبد المجيد النجار*

الملخص

يهدف البحث إلى بيان المقصد القرآني من عمران الأرض، وما يتطلبه هذا العمران من بناء فكري يمكِّن العقل المسلم، من تحقيق شروط الاستخلاف نظراً، وبحثاً، وتجريباً، لتحصيل العلوم، وتوظيفها، مع الرفق بالبيئة الكونية وحفظ توازنها. وهو بناء فكري يتّصف بالتحرر، والنظر الشمولي، والمنهج الواقعي، والتحليل النقدي والحوار والمراجعة، وذلك ما حققته الأجيال الأولى من المسلمين بفعل الأثر القرآني. وتاريخ الحضارات في نهوضها وسقوطها يشهد بما للبناء الفكري من دور محوري في أسباب ذلك. والأمة مطالبة اليوم بالانطلاق في دورة جديدة من إنجاز العمران البشري باستيعاب التراث، والعلوم المعاصرة برؤية تحليلية نقدية تهتدي بالقرآن، وتتجاوز العقبات والأسباب التي أدت ولا تزال تؤدي إلى التخلف.

الكلمات المفتاحية: مقاصد القرآن، العمران البشري، الفكر العمراني، البناء الفكري، الشهود الحضاري.

The Qur'an's Intents (*Maqasid*) of Establishing Civilizational Thought

Abdel Majeed Al-Najjar

Abstract

This paper identifies the Qur'an intents of establishing the *Umran* or civilizational thought, i.e. building a human civilization on earth. To achieve this purpose Muslim mind needs to contemplate, research and experiment to build knowledge of various sciences and use it wisely while conserving resources and maintaining balance in the environment. This intellectual building is characterized by free, comprehensive and analytical thinking, empirical approach, and critical evaluation. History has proved the central role of intellectual building in rising and falling of civilizations. Muslim *Ummah* is called upon to embark on a new cycle of human civilization under Qur'anic guidance to overcome the obstacles that led and continue to lead to underdevelopment.

Keywords: Qur'anic intents (*Maqasid*), *Umran* or Humsn Civilization, Civilizational thought, Intellectual building, Civilizational presence.

---

* دكتوراه في العقيدة والتشريع، جامعة الأزهر، عام ١٩٨١م، رئيس المركز العالمي للبحوث والاستشارات العلمية– تونس. البريد الإلكتروني: abdelmajidn10@gmail.com

تم تسلم البحث بتاريخ ٢٠١٦/١٠/١٥م، وقُبل للنشر بتاريخ ٢٠١٧/٣/١٥م.

مقدمة:

كرَّم الله تعالى أُمة الإسلام بخير رسالةٍ أنزلها على نبيه محمد ﷺ، وكفل بها العيش السعيد الآمن للمسلم في الحياة الدنيا، والنعيم المقيم في الآخرة؛ شريطة أن يؤدي المهمة العظيمة التي كُلِّف بها في دار الابتلاء، وهي الاستخلاف وعمارة الأرض، مادياً ومعنوياً، فيعيش في خير وسعادة وقد عمر الإيمان قلبه، وهذَّب أخلاقه، وينال رضا الله تعالى في الحياة الباقية. وعلى هذا؛ فإن المقصد الأعلى من ذلك كله هو تحقيق الخير للإنسان في الدارين، وهو مقتضى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

غير أن هذا المقصد الأعلى لا يتحقَّق للمسلم بصفة تلقائية حينما يستقر منه العزم على تحمُّل ذلك التكليف تحمُّلاً إيمانياً؛ وذلك أن المادة التكليفية بعمارة الأرض مُضمَّنة في نصوص كلامية، هي نصوص القرآن الكريم والسُّنة النبوية، فاستيعابها المعرفي يحتاج إلى مكابدة عقلية لفهمها فهماً صحيحاً مطابقاً للمراد الإلهي منها، والعمل بمقتضاها تنفيذاً في واقع الحياة يحتاج أيضاً إلى ذات المكابدة العقلية لتسير تلك المقتضيات على النحو الذي تتحقَّق به غاية التكاليف ومقاصدها؛ خيراً للإنسان المسلم في الدنيا والآخرة.

وإذا كانت الإرادة الإلهية قد أقامت التكليف على العقل الذي هو آلةٌ للفهم، وبنته على مبادئ منطقية كلية تُؤسِّس للفهم الصحيح والتدبير الرشيد، فإن العقل مع انْبِنَائه على تلك المبادئ المؤسسة قد يقصر به السعي عن النفاذ إلى الحق في النظر، والاهتداء إلى الرشد في العمل، لعوامل ذاتيةٍ أو موضوعية، فأصبح بحاجة إلى رعاية تربوية تبنى فيها حركته في مسعاه إلى الحق والخير على منهجية تسدد تلك الحركة، فيصبح عقلاً قادراً على التحصيل المعرفي الصحيح من مصدر الدين، وتنزيل ما يُحصِّله من الحق النظري في واقع الحياة تنزيلاً ينتهي إلى تحقيق مقاصد الدين في إقامة العمران.

وكما كان الله تعالى رحيماً بالمسلم في توجيهه إلى سبل السعادة بما كلَّفه به من المضامين، فإنه كان به رحيماً أيضاً في توجيهه إلى المنهجية الصحيحة التي تبنى عليها حركة العقل في التفكير؛ تحمُّلاً للدين فهماً وتنزيلاً. ولذلك جاءت الإرشادات القرآنية إلى البناء الفكري الصحيح إرشادات مستفيضة، بحيث يتحصَّل منها أن هذا البناء

الفكري القادر على التعمير يعد أحد أهم المقاصد القرآنية، حتى عَدَّه بعضهم قريناً للمضامين التكليفية التي أنزلها الله تعالى على عباده، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾ (الشورى: ١٧).

فالميزان إنما هو المنهج الذي يكتمل به فهم الدين، وتنزيله الفهم الصحيح، والتنزيل الرشيد. فما المقصد القرآني في عمارة الأرض؟ وما المقصد القرآني في البناء الفكري لتحقيق تلك العمارة؟

أولاً: العمران بوصفه مقصداً قرآنياً

بناءً على قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ (هود: ٦١)، فإن الإنسانَ مُكلَّف بمهمة تعمير الأرض، بل إن ذلك هو الهدف من وجوده كما يوحي به اقتران الإخبار بإنشاء الإنسان بطلب التعمير في الأرض، وهو ما اقتضى أن يكون من مقاصد القرآن الكريم بيان هذه المهمة التي كُلِّف بها الإنسان. وقد جاء البيان القرآني وافياً في هذا الشأن، ومُفصِّلاً للعناصر الأساسية اللازمة للتعمير المنشود.

ولمـَّا كانت عمارة الأرض هي مهمة تكليفية من الله تعالى للإنسان في بُعْده الفردي والجماعي، فإن العناصر الأساسية التي يتألَّف منها البيان القرآني لمقصد العمارة هي ثلاثةٌ: طبيعة التكليف الإلهي للإنسان بمهمة العمارة، وهي طبيعة الاستخلاف، وطبيعة العلاقة التعميرية بين الإنسان والأرض، وهي الارتفاق، وطبيعة العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، وهي الشهادة على الناس؛ فهذه هي العناصر الأساسية لمقاصد القرآن في بناء العمران.

١. عمران الاستخلاف:

الاستخلافُ مأخوذٌ من الخلافة، على معنى أن الله تعالى خَلقَ الإنسانَ ليكون خليفته على الأرض ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ

فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴿٣٠﴾ (البقـــرة: ٣٠). وقد أُنيطت به مهمة إعمار الأرض وَفق أوامر الله ونواهيه؛ فالمُستخلِف هو الله تعالى، والخليفة هو الإنسان، "وخَلَفِيتُه [أو استخلافه] هي قيامه بتنفيذ مراد الله تعالى من تعمير الأرض."[1] وعلى هذا، فإن جميع ما يقوم به الإنسان من عمل إنجازي لهذه المهمة يجب أن يجري وَفق منهج الاستخلاف الذي يوجب الالتزام بأوامر المُستخلِف ونواهيه.

والحقيقة أن كل ما يقوم به الإنسان من عمل يتعلق بتنمية الذات الإنسانية، أو ترقية الهيئة الاجتماعية، أو استثمار المُقدَّرات الطبيعية، ويجب أن يكون مُؤطَّراً بإطار الاستخلاف، بحيث ينطلق الإنسان في هذا التعمير، ويمضي فيه على أساس أنه مُستَخلَفٌ من الله تعالى، ومُوجَّهٌ بتوجيهه فيما يتعيَّن أن يفعل، وما ينبغي أن يترك، فيكون العمران الذي يُنجِزه عمراناً استخلافياً، تظهر فيه هذه الصفة فيما تقتضيه من الالتزام بالحدود التي يُحدِّدها الدين، مع ترك فسحةٍ للعقل ليحكم في التفاصيل التي لم يُحدِّدها الدين في إطار الكليات التي حدَّدها بمنهج الاجتهاد؛ فهو إذن عمران استخلافي في كل منجزاته المادية والمعنوية.

وعلى هذا المقصد القرآني في العمران الاستخلافي نشأت الحضارة الإسلامية وتطورت، مُصطبِغةً بالصبغة القرآنية في مختلف مناحيها، وجميع إنجازاتها، وقد انعكس ذلك إيجاباً على المسلم بوصفه فرداً، ومجموع المسلمين بوصفهم هيئة اجتماعية؛ فكل ما حرَّروه فكراً وأنجزوه عملاً إنما صدر عن دافع قرآني، مُكيِّفين أفكارهم وأعمالهم بأحكام قرآنية، فإذا بالعمران الذي أقاموه قد غدا عمراناً استخلافياً يُنجِزونه في نطاق ما كُلِّفوا به من القيام بمهمة الخلافة على الأرض.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ الحضارةَ الإسلامية وما تحقَّق فيها من عمران تختلف عن غيرها من الحضارات التي يقتصر فيها الدين على التوجيه الروحي المتعلق بعلاقة الإنسان بمعبوده دون علاقته بمَن سواه، التي يحكمها العقل المستقل؛ إذ كان الدين في هذه الحضارة هو المُوجِّه لجميع تصرفات الإنسان، سواء كانت خاصة به، أو بمجتمعه، أو ببيئته، أو

[1] ابن عاشور، محمد الطاهر. **التحرير والتنوير**، تونس: الدار التونسية للنشر، ط١، ١٩٨٤م، ج١، ص٣٩٩، عند تفسير الآية ٣٠ من سورة البقرة.

بخالقه، فكانت كل إنجازاته العمرانية ناشئة بالعامل الديني، ولك أن تلحظ ذلك في علومه ومعارفه، وفي أنظمته وعاداته، وفي تخطيط مدنه ورسم مساكنه، وفي تشييد معماره والسعي في الأرض بالاستثمار؛ لذا يمكن القول: إن الحضارة الإسلامية –بوصفها تنفيذاً لمهمة الخلافة– قد استمدَّت كل توجيهاتها من مَعين القرآن الكريم، فهي إذن حضارةٌ دينيةٌ في دوافعها الأصلية، وفي تحقُّقاتها التاريخية المتمثلة في العمران الإسلامي في جميع وجوهه.[٢]

٢. عمران الشهادة على الناس:

يقصد بذلك أن العمران الإسلامي هو –بالتوجيه القرآني– عمرانُ تواصلٍ مع بني الإنسان كافةً، وهو تواصل التبليغ لما هو قائم عليه من قيم دينية، وعمرانُ نفعٍ بما يتحقَّق فيه من خيرٍ مادي ومعنوي ينفع به الناس، وعمرانُ تعاون مع مختلف الشعوب والأُمم على ما فيه خير الإنسانية؛ فهو بذلك لا يعد عمران انغلاقٍ على نفسه، وانكفاءٍ على ذاته، يحتكر الهدى والخير دون العالمين، بحيث يخاصمهم على ما عندهم، ويفتكُّه منهم، ويستبد به دونهم، كما هو شأن العديد من الحضارات التي عرف منها التاريخ نماذج قديمة وأُخرى جديدة.

والعمران الإسلامي هو عمرانُ تبليغ ديني، تأكيداً لما جاء في القرآن الكريم الذي تأسَّس عليه هذا العمران من دعوة عالمية خاطب بها الناس أجمعين، بحيث يعرض عليهم نفسه ليؤمنوا به، ويُؤيِّد عرضه بالبراهين على صدقه وخيريته، ويُوفِّر لهم ضمانات الاختيار الحر للنظر فيه، ويُبشِّرهم بالسعادة إن اختاروه، ويُنذِرهم بالعقاب إن تنكَّبوا عنه، ثم يتركهم أحراراً في الاختيار لا يُكرِههم على قَبوله أو رفضه، وهو مقتضى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (سبأ: ٢٨)، وقوله سبحانه: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ (البقرة: ٢٥٦).

[٢] انظر في ذلك:

– ابن خلدون. عبد الرحمن. **المقدمة**، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ط٣، د.ت، ج٢، ص٨٨٨ وما بعدها.

فبهذا التوجيه القرآني نشأ العمران الإسلامي، وجاء التاريخ شاهداً به؛ إذ أفاد العمران الإسلامي من المكتسبات الحضارية السابقة، وأخذ منها ما فيه الخير لبني الإنسان، ثم أضاف إليها -بالتوجيه القرآني- إضافاتٍ كثيرةً حتى بلغ هذا العمران شأواً بعيداً في العلم النظري والإنجاز العملي، ثم حمل هذا الإنجاز يعرضه على الأُمم والشعوب لا يجحد منه شيئاً، ولا يحتكر لنفسه خيراً، فإذا هو يمتد شرقاً وغرباً، يترقَّى به الإنسان في ذاته بصرف النظر عن دينه، ويستثمر به مُقدَّرات الطبيعة، ويحتمي به الضعفاء والمضطهدون من الاضطهاد والظلم؛ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ (الحجرات: ١٣).

وإذا كانت الشهادة على الناس تعني أن يكون الشاهد عليماً بما يشهد به، ومُبلِّغاً إياه للناس ليقوم به العدل، وينتفع به الخلق، فإن العمران الإسلامي -بالتوجيه القرآني- كان شهادة المسلمين على الناس؛ إذ قام هذا العمران -بالتوجيه القرآني- على العلم بالوجود والكون، ثم على تبليغ ذلك العلم للبشر لينتفعوا به؛ ترقيةً لمعاني الإنسانية فيهم، واستغلالاً للبيئة الكونية، فكان بحقٍّ عمراناً شاهداً على الناس امتثالاً للمقصد القرآني في إقامة العمران، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾ (البقرة: ١٤٣).

٣. عمران الارتفاق الكوني:

هو معنى مأخوذٌ من استثمار الطبيعة الكونية والانتفاع بمُقدَّراتها، ولكن برفق يحافظ عليها من الفساد؛ فقد أوجب التوجيه القرآني على الإنسان -في سبيل إنجاز مهمة الخلافة- أن يسعى في الأرض بالاستثمار، وجعل ذلك أحدَ وجوه الخلافة فيها، وعَدَّ الإخلال به انكماشاً عنها، وزهداً في خيراتها، واكتفاءً بما تيسَّر من عطائها المباشر مما يحفظ الحياة؛ عَدَّ ذلك إخلالاً بواجب التعمير، الذي هو أحد مقتضيات الخلافة على الأرض.

ويبدأ ارتفاق الطبيعة من النظر فيها نظر درسٍ للعلم بقوانينها، واكتشاف أسرارها، وهو ما جاء فيه حث قرآني مؤكدٌ يدل على الوجوب، قال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ (العنكبوت: ٢٠)، ثم يكون على أساس ذلك العلم السعيُ في الأرض لاستخراج خيراتها والانتفاع بها، وهو ما جاء في مثل قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ (الملك: ١٥). وقد قُيِّد هذا السعيُ في الأرض للاستثمار بالمحافظة عليها من أن يطالها ما يُفسِدها من استهلاكٍ مُفرِطٍ يهدر مُقدَّراتها، ويخلُّ بتوازنها، أو تلويث بأبخرةٍ وسمومٍ تُعكِّرُ صفو تركيبها، وتُربك كفاءتها في إعالة الحياة، قال تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (البقرة: ٦٠).

وعلى هذا المقصد القرآني في البناء الحضاري؛ استثماراً للكون في رفق، نشأ العمران الإسلامي وتطور. فقد توجَّه المسلمون –منذ تيسَّر لهم الاستقرار– إلى الطبيعة الكونية، ينظرون فيها نظرَ بحثٍ عن حقائقها، فأنتجوا في ذلك علوماً كثيرةً، ثم سعوا إلى استثمار معادنها بالتصنيع، والإفادة من مياهها وترابها بالزراعة، ومن بحارها بالصيد والتجارة، وكان لهم في ذلك كسبٌ مشهودٌ. وقد أدرجوا هذا الاستثمارَ في وجوهِه المختلفة، ضمن قواعدَ وضوابطَ تحافظ على البيئة الطبيعية من الفساد، وأنشأوا في سبيل ذلك فِقهاً نظرياً، ومؤسساتٍ وهيئاتٍ تسهرُ على تطبيقه في مجرى الحركة الحضارية على أرض الواقع.

وهكذا، فإن هذه العناصر العمرانية الثلاثة كانت مقصدَ القرآن الكريم في إقامة العمران، فتشكَّل عليها العمرانُ الإسلاميُّ، فإذا هو عمرانٌ قام حقيقةً بداعية قرآنيةٍ، وتوجَّه في جميع مناحيه بتوجيهٍ قرآنيٍّ، واصطبغ في روحه العامة ومظاهره الواقعية بصبغة التوحيد، وإذا هو عمران عرض نفسه على الناس ليستفيدوا منه، وأقام مع بني الإنسان جميع علاقات التعارف المبنية على العدل وإرادة الخير، وإذا هو عمران سعى في الأرض باستثمار خيراتها وتوظيفها لمصلحة الإنسان مع المحافظة عليها من الفساد. صحيح أن هذا البناءَ العمرانيَّ كان مُوجَّهاً توجيهاً قرآنياً، بيد أنه كان للعقل فيه –ضمن ذلك

التوجيه- مجالٌ واسعٌ، ودورٌ فاعلٌ في الاجتهاد التفصيلي على هدي من التوجيه القرآني الكلي.

ثانياً: بناء الفكر العمراني بوصفه مقصداً قرآنياً

العمران على النحو الذي قصده القرآن الكريم لا يمكن أن يقومَ بصورةٍ تلقائية، وبمجرد حصول الإيمان به وبمقتضياته من الأحكام، وإنما يحتاج الأمر إلى عقلٍ يتكوَّن على منهجية في التفكير، ينهض بها ذلك العمرانُ بعناصره الثلاثة. صحيحٌ أن الله تعالى خلق الإنسان وكرَّمه بعقل منطقي، غير أن ذلك العقل في مبادئه الكلية المشتركة بين البشر يحتاج إلى أن يتكوَّن على منهجية في التفكير، يتمكَّن بها من الوصول إلى الحق في النظر، والرشد في العمل؛ ليتحقَّق بذلك إقامة العمران كما جاء القرآنُ الكريم يُوجِّه إليه، وإلا فإنّ العمران -وإن حصل الإيمان بالقرآن ومقاصده، وانكمش العقل دون المنهجية المثمرة- بوصفه مقصداً قرآنياً لن يكون له أي تحقُّق، وفي تاريخ المسلمين مصداقٌ لذلك في كسبهم العمراني، وعلاقته -في صعودِه ونزوله- بمنهجية التفكير خلال ذلك التاريخ. وكما جاء القرآنُ الكريم ببيان مقاصده العمرانية، فإنه جاء أيضاً ببيان مقاصده في البناء الفكري الذي يُمكِّن من تحقيق تلك المقاصد العمرانية.

١. الفكر والبناء الفكري:

أصبح مصطلح "الفكر" مصطلحاً واسعَ الدلالة متعددَ المضامين؛ سواء أكان متعلقاً بذاته أم بالعقل، ما يتطلب بيان المدلول المصطلحي الذي نستعمله في هذا المقام.

أ. العقل والفكر:

بصرف النظر عن التعريفات المتعددة التي عُرِّف بها العقل بوصفه جوهراً متحيزاً عند بعض الباحثين، وبوصفه معنًى غير جوهري عند بعض آخر، فإن المقصودَ به هو قوة الإنسان التي يتم بها إدراك المعاني غير المحسوسة، والتي تتيح الانتقال من المعلوم لمعرفة المجهول، وتُمكِّن الإنسان من التمييز بين المتشابهات والمتناقضات، وإصدار الأحكام

القيمية عليها. وفي الحقيقة، فإن للعقل مساراً يسلكه في حركته لإدراك العلم وَفق قواعد وضوابط معينة، وذلك المسار هو الذي يُسمَّى اصطلاحاً بالفكر أو التفكير.

فمقصودنا بالفكر في هذا المقام، وكما نريد أن يكون مصطلحاً بيِّناً يجري عليه هذا البحث، هو المنهجية التي يجري عليها عقل الإنسان في سعيه إلى إدراك الحقيقة النظرية والعملية. ولهذا التحديد أصل في المدلول اللغوي؛ إذ جاء في معاجم اللغة أن الفكر هو إعمالُ الخاطر في الشيء،[٣] إشارةً إلى أنه حركة العقل في موضوعات المعرفة، وهذا المدلول هو الذي استقرت عليه الثقافة الإسلامية في استعمال هذا المصطلح، وهو ما ضبطه الجرجاني في تعريفاته؛ إذ يقول: "الفكرُ ترتيبُ أمورٍ معلومةٍ للتأدي إلى مجهول."[٤] ومن البيِّن أن هذا الترتيب ليس سوى حركة العقل في البحث عن الحقيقة.

وما هو شائع اليوم بين أهل النظر من إطلاق مصطلح "الفكر" –الذي هو منهج العقل في البحث عن الحقيقة– على الأفكار التي يقع التوصُّل إليها في ذلك البحث، لا يعدو كونه ناشئاً عن إطلاق الملزوم على اللازم، كما هو من عادات اللسان العربي، ولكنه إطلاق يُحدِث ارتباكاً في تحديد معنى هذا المصطلح واستعمالاته، وهو ما آنَ الأوان للرجوع به إلى الأصل الذي استقرت عليه الثقافة الإسلامية، مقصوداً به منهجية النظر العقلي، لا حصيلة ذلك النظر من الأفكار مثلما سنعتمده في هذا المقام، وكما اعتمدناه في مجمل بحوثنا في هذا الشأن.

فالعقلُ إذن هو الآلةُ التي يقع بها التفكير، والفكرُ هو حركةُ تلك الآلة في سعيها الإدراكي، والأفكارُ هي حصيلةُ ما يصل إليه العقل من تصوراتٍ نتيجة التفكير. ولشدَّة الصلة بين هذه الأطراف الثلاثة، فقد يقع التبادل بينها في الدلالة، فيطلق لفظ "الفكر"

---

[٣] ابن منظور، محمد بن مكرم. **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، ط٤، ١٩٩٤م، ج٥، مادة: فكر، ص٦٥.

[٤] الجرجاني، علي بن محمد بن علي. **التعريفات**، تحقيق: إبراهيم الأبياري، بيروت: دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٥هـ، ص٢١٧. انظر أيضاً:

– ابن سينا، أبو علي الحسين بن علي. **الإشارات والتنبيهات**، تحقيق: سليمان دنيا، القاهرة: د.ت، ١٩٤٧م، ج١، ص٢٣.

– النجار، عبد المجيد. **دور حرية الرأي في الوحدة الفكرية بين المسلمين**، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٩٩٢م، ص٢٧.

على العقل، أو لفظ "العقل" على الفكر، أو لفظ "الفكر" على الأفكار، وكل ذلك يقع بسبب التلازم بين هذه الأطراف، والقرائن هي التي تُحدِّد المدلول عند تناوب هذه الألفاظ.

ب. البناء الفكري:

نعني بالبناء الفكري صياغة المنهجية التي يعتمدها العقل في النظر (وهي الفكر) على أسس معينة، تجعل ذلك النظرَ نظراً سديداً يُفضي إلى تحقيق المقصود؛ وهو إصابة الحقيقة بأكبر ما يمكن من الأقدار. فالعقل في نظره المعرفي مُرشَّح -بحسب ما رُبِّي عليه من الخصال المنهجية- لأن يسلك مناحي متعددة مختلفة من مناحي النظر، وتلك الخصال هي التي تكون مُحدِّداً أساسياً لما يصيب من الحقائق، أو لما يخطئ منها.[٥]

ولكي يكون النظرُ العقليُّ (الذي هو الفكر) نظراً سديداً في مسعاه نحو تحصيل الحقيقة؛ يجب أن يُؤخَذ بتربيةٍ مقصودةٍ يصبح بها مبنياً على أسس منهجية من شأنها أن تكون له درباً ينتقل فيه من مرحلة إلى أُخرى من مراحل حركته، بحيث يتأدَّى من المعلوم الذي يُحصِّله إلى المجهول الذي يسعى إلى معرفته، في منطقيةٍ تُفضي به إلى إدراك مطلوبه من الحقائق.

ويحتاج العقلُ إلى هذه التربية في حركته (التي هي الفكر)، بالرغم من أنه بُنِي في فطرته على مبادئ منطقيةٍ؛ لأن هذه المبادئ نفسها قد يطالها الطمسُ لسببٍ أو آخر، ولأنها مبادئ لئن كانت كافيةً في إدراك ما هو من الحقائق بسيطٌ في طبيعته، قريبٌ في مورده، فهي غير كافية في تحصيل ما هو منها مُعقَّدٌ بعيدٌ. وعلى هذا، فإن الفكرَ تلزمه تربيةٌ يصبح بها مكتسباً من الصفات لما هو مبني على المبادئ الفطرية، تناسباً في ذلك مع الحقائق في تعقيدها وبُعْد مواردها.

ولشدَّة ما بين العقل والفكر من التلازم كما أسلفنا، فإن البناءَ الفكريَّ يمكن أن يتبادل المصطلح مع التربية العقلية؛ وذلك أنَّ العقلَ الذي هو آلةُ التفكير، وإن كان

[٥] وذلك -على سبيل المثال- هو ما يُفرِّق بين العقل الذي رُبِّي على الأسطورة والخرافة، والعقل الذي رُبِّي على المنطقية السببية، أو الواقعية التجريبية، فيما ينتهي إليه كلٌّ منهما من إصابة للحقيقة، أو خطأ فيها.

متمثلاً في جملة من العلوم الضرورية كما يذهب إليه الكثيرون في تعريفه،[٦] مقصود به في كل الأحوال القوة التي يمكن أن تُنمَّى بالاكتساب؛ حفظاً لتلك الضرورات من الطمس، ومراناً لها على الحركة التي تُقوِّي من حسن أدائها، فتكون تقوية الملكة الإدراكية في ذاتها بناءً عقلياً، ويكون ترشيد منهجها في الإدراك، وأدائها فيه بناءً فكرياً باعتبار أنَّ البناء ينصب على الأداء هنا، وينصب على الآلة نفسها هناك.

٢. المقصدية القرآنية للبناء الفكري:

لئن جاء الدين مُكلِّفاً الإنسان بالإيمان وما يتبعه من عمل، فإنه جاء أيضاً مُكلِّفاً إياه باستعمال العقل الاستعمالَ الرشيد، وتوجيهه في التفكير إلى المنهج الصحيح الذي يُفضي إلى معرفة الحقيقة، ولا غرو؛ فإن الإيمان المطلوب في الدين هو الإيمان الذي يحصل لدى الإنسان بالتأمل العقلي الذي يعقبه الاقتناع الذاتي. أمَّا الإيمان الموروث، وإن كان مقبولاً عند أكثر أهل العلم، فإنه يتبوأ في السلَّم الإيماني أدنى الدرجات. والتأمل العقلي إذا لم يكن مُنتهِجاً النهجَ الصحيحَ فإنه لا يؤدي إلى الإيمان، فالطريق إذن إلى الإيمان المعتدِّ به هو الفكرُ الرشيد؛ ولذلك كثُرَ الاهتمامُ به في القرآن الكريم والسُّنة الشريفة حتى جُعِل السعيُ فيه واجباً دينياً مُلزِماً، ليس من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب فحسب، ولكن بالأوامر المباشرة بالنظر والتأمل والتدبر. ويتحصَّل من ذلك أن البناءَ الفكريَّ في القرآن الكريم قد جاء مقصداً مهماً من مقاصده، وأن الآياتِ الكثيرةَ والأحاديثَ النبوية العديدةَ قد تضافرت على بيانه والتوجُّه إليه.

فإذا نظرنا في القرآن الكريم والحديث الشريف نستجلي منهما الاهتمامَ بالفكر والتوجيه إلى المنهج الصحيح فيه، فإننا نجد من ذلك نظاماً متكاملاً. وإذ سنُفصِّل لاحقاً في هذا المنهج الذي نرى أنَّ البناءَ الفكريَّ يجب أن يقومَ عليه؛ فإننا نضرب مثلاً على اهتمام القرآن والحديث بمنهج التفكير في مسألة تعد مفتاح هذا المنهج كله، هي مسألةُ تحرير العقل من المعوقات التي تعوق من دون أن ينطلق في ممارسة الفكر بموضوعية تُفضي

[٦] الجويني، إمام الحرمين، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف. **كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد**، ضبط وتحقيق: أحمد عبد الرحيم السائح، وتوفيق علي وهبة، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ٢٠٠٩م، ص٢١.

به إلى الحقيقة بأكبر أقدار ممكنة؛ فقد جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف من الدعوة المُؤَكِّدة إلى تحرير الفكر ما يرقى بهذا التحرير إلى أن يكون فريضةً دينيةً يؤْجرُ القائم بها، ويَأثمُ المتخلّي عنها، وسنُبيِّن لاحقاً هذا المعنى بشيءٍ من التفصيل.

ومثلما اهتم القرآن الكريم بتحرير العقول بوصفها قاعدة منهجية للفكر، فإنه اهتم بقواعد أُخرى عديدة سنتناولها بالشرح، ومن ذلك –مثلاً– ما كان يُوجِّه به العقول توجيهاً دؤوباً إلى الانطلاق في النظر العقلي من الواقع المحسوس للتأدِّي منه إلى العالم المعقول؛ سواء تمثَّل ذلك الواقع في مظاهر الطبيعة، أو في مشاهد الحياة، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ (يونس: ١٠١)، وقال سبحانه: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٦٩﴾ (النمل: ٦٩). ومنها ما كان يُوجِّه به العقول إلى التبيُّن فيما يُعرَض عليها؛ لتمييز الحق منها من الباطل، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ (الحجرات: ٦). وهكذا نجد أن القرآنَ الكريم يُوجِّه العقولَ دائماً إلى المنهج الفكريِّ الذي يوصلها إلى الحقِّ، ويُبعدها عن الضلال.

وقد كان لهذا التوجيه القرآني أثرُه البالغ في الفكر الإسلامي؛ إذ انطبع هذا الفكرُ على جملة من الخصال المنهجية التي جاء القرآن الكريمُ مُوجِّهاً إليها، من مثل: الواقعية، والتبيُّن، والتوحيد، والشمولية في النظر بما قد أحدث في معهود الفكر، زمن نزول القرآن الكريم، من ثورة منهجية معرفية جعلت الواقع منطلقاً للمعرفة بدل ما كان سائداً في الثقافة الهلينية من أنَّ التعقُّلَ المجردَ هو الطريقُ إلى المعرفة، وما كان سائداً عند الإشراقيين من أن الترِّيضَ الروحيَّ هو السبيلُ إلى الحق.[٧] وبهذا المنهج الفكري نشأت حركةُ العلوم الإسلامية كلها، ومنها كان البناء الحضاري الإسلامي في وجوهه المختلفة.

غير أن هذه الثورة المنهجية الفكرية التي أحدثها القرآن الكريم لم تلبث بعد زمن أن شهدت ارتداداً في الكثير من عناصرها؛ إذ أخذ الفكر الإسلامي ينحسرُ نظرُه الواقعي في

---

[٧] انظر في ذلك:

– إقبال، محمد. **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، ترجمة: عباس محمود، مراجعة: عبد العزيز المراغي، ومهدي علام، القاهرة: دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠٠٠م، ص١٥٢.

الطبيعة ومشاهد الحياة، ليتجه نحو المجردات، وينتهج نهجَ المنطق الصوري اليوناني. وشيئاً فشيئاً أصبحت العلومُ الحسيةُ متأخرةً في الرتبة عن العلوم النظرية، وأصبح هذا الفكرُ يتجه أيضاً نحو التأملات الروحية المتنكّبة عن الواقع تأثُّراً بمنازع صوفية مستجلبة من ثقافات شرقية قديمة.

وبتقدُّم الزمن، وتسارُع الانحدار الحضاري الإسلامي، أخذت الأمراض المنهجية الفكرية تتفاقم، فكان التعصب الذي تنتفي فيه حرية الفكر ليكون الفكرُ مُوجَّهاً بما استقر في المذاهب، مُقيَّداً بما انتهى إليه السابقون فيها، وكانت أحادية النظر التي تُضيِّق دائرة المادة محلَّ البحث لتقتصر على الرأي الواحد والوجهة الواحدة من دون أن تتيسَّر الفرصة للمقارنة والنقد، وكان النزوع إلى الانطلاق من الأحكام المسبقة والمرويات السالفة لتتّخذ مسلَّمات يقع الانطلاق منها للبحث من دون تبيُّنٍ وفحصٍ ناقدٍ. وهكذا انحدر الفكرُ الإسلاميُّ حائداً عن المقصد القرآني في المنهج الفكري حتى انتهى الأمرُ إلى الانحطاط الحضاريِّ للأُمةِ كلِّها.

لقد كان البناءُ الفكريُّ -على معنى صياغة العقل، ومنهجية التفكير التي تفضي به إلى الصواب في النظر، والرشد في العمل- مقصداً قرآنياً أساسياً، وقد كان هذا المقصد عنصراً أساسياً للثقافة الإسلامية زمناً طويلاً، ولكن حين غفل المسلمون عنه، فتشكَّلت العقول على منهج مخالف للمنهج القرآني؛ تأثُّراً بالوارد من تجريدية اليونان، أو باطنية الإشراق، أو الثقافة الغربية الحديثة، فلم يعد ينتج كما كان ينتج، وآلَ الأمرُ إلى التخلُّف الذي كابدت الأُمةُ من أجل التخلص منه.

وقد رسَّخ هذا الوضع الفكري المرتد النظام التربوي الذي اعتُمِد عند المسلمين منذ قرون عدَّة، وذلك بما انتهى إليه هذا النظام من التلقين الذي تتقلَّص فيه كثيراً مساحةُ الحوار الناقد، وبما انتهى إليه من استبعاد للعلوم العقلية والواقعية التي تُكوِّن العقول على التفكير المنطقي، وتدفع بها إلى التفكير الواقعي التجريبي، وبما انتهى إليه من نمطيةٍ راتبةٍ لا

يمكنها أن تدفعَ بالعقول إلى التفكير الابتكاريِّ الرياديِّ الذي يستكشف الجديد، ويضيف الطارف إلى التليد.

وقد وصف الإمامُ محمد الطاهر بن عاشور هذا الخللَ التربويَّ التعليمي، شارحاً أسباب التخلف التربوي، بقوله: "سلب العلوم والتعليم حرية النقد الصحيح في المرتبة العالية وما يقرب منها، وهذا خللٌ بالمقصد من التعليم، وهو إيصال العقول إلى درجةٍ الابتكار... [فقد] أصيب التعليمُ في عصور الانحطاط بشيءٍ من سلبِ حرية النقد، وأصبحت متابعةُ كل ما يكتب فكرةً سائدةً في أهل العلم... حتى إذا وجدوا قولين متناقضين أمسكوا عن الترجيح، وقالوا: هذا قال، وهذا قال... ."[٨]

وما يزال الكثيرُ من هذه الأمراض المنهجية الفكرية –حتى اليوم– يعرقل الفكرَ الإسلاميَّ عن الانطلاق في منهج النظر الصحيح، ولعل المدارس التقليدية تعاني أثر ذلك أكثر من غيرها، حتى إن المدارس الحديثة التي استفادت من المناهج الفكرية الغربية في التربية التعليمية أُصيبت هي أيضاً بأمراض منهجية أُخرى، منها الازدواجية في النظر التي تُشتِّت الفكر، ولا تبقي له الميزان الموحد في الأحكام؛ وذلك نتيجة ازدواجية العلوم في النظام التربوي الحديث، وهي ازدواجية تحمل قدراً كبيراً من التناقض. فالعلومُ القانونيةُ تُناقِض العلوم الفقهية، والعلوم الطبيعية تُناقِض أحياناً العلوم العقدية، والعلومُ السياسيةُ تُناقِض العلوم الأخلاقية، وهَلُمَّ جَرّاً في علوم كثيرة.

وكانت نتيجةُ هذا المسلك اضطراباً في منهجية التفكير التي تتحرك بها عقول الناشئة المسلمة، فلم تقدر هذه العقول على الانتهاء إلى الريادة والابتكار، ولم تستطع العقول التي تربَّت في المدارس التقليدية على الاجتهاد المنتج؛ ما يُحتِّم علينا أن نُراجِع مراجعةً حقيقيةً جادةً المنهجَ الفكري في النظام التربوي الإسلامي، استهداءً بالمقصد القرآني في البناء الفكري، واقتباساً من التجربة الحضارية الإسلامية، واستفادةً من النظم التربوية الحديثة.

[٨] ابن عاشور. محمد الطاهر. **أليس الصبح بقريب**، تونس: دار سحنون للطباعة والنشر، ودار السلام للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٦م، ص١١٣.

٣. العناصر الأساسية للبناء الفكري:

خلق الله تعالى عقلَ الإنسان على ضرْبٍ من الفطرة المنطقية التي تجعله مستعداً للمضي قُدُماً في الطريق الصحيح الموصِّل إلى الحقيقة، غير أنه يحتاج –شأنه في ذلك شأن كل ما هو فطري في الإنسان– إلى معالجة تربوية لتبلغ هذه الفطرة مداها، بحيث يُؤخَذ فيها العقل بالتمرين على خصالٍ في حركته الفكرية، بحثاً عن الحقيقة التي ترتقي بكفاءته في ذلك البحث، بما يكفل له إصابة الحق بأكبر قدر ممكن. أمَّا إذا لم يُعالَج العقل بهذه التربية فإن عوامل طمس الفطرة المنطقية تدهمه، فيحصل الضلال الذي أشار إليه المولى ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ (الأعراف:١٧٩). فالعقول التي لا تفقه إنما هي كذلك بسبب عوامل الطمس التي أصابت الفطرة فيها؛ إذ لم تُعالَج بالمران التربوي لتسلك المسار الفكري المفضي إلى الحقيقة.

والخصال الفكرية التي يتربَّى عليها العقل هي خصال تتكوَّن بالمران المتراكم على مَرِّ السنين، وذلك باتباع تربية تتعلق بالكيفيات التي يتعامل فيها العقل مع الموضوعات التي يروم الوصول إلى حقيقة فيها، وتتكوَّن أيضاً بنوع العلوم والمعارف التي يتلقّاها العقل، فيتشكَّل بها على حسب طبيعتها (علوم حجاجية، علوم رياضية، علوم منطقية). فمن هذا وذاك يتكيَّف العقلُ بكيفيةٍ تجعله في طريقة النظر، (وهو البناء الفكري) ينتهج المنهج السديد الذي يتحرر فيه من المعوقات الخارجية والداخلية، لينطلق في التعامل مع موضوع بحثه تعاملاً موضوعياً، يُسدِّد خطاه في سيره للكشف عن الحقائق في المجالات التي هو قادرٌ على الكشف فيها. وهذه العناصر المنهجية الفكرية التي يُربَّى عليها العقل إنما هي عناصر متعددة، وقد جاء القرآن الكريم يُوجِّه إليها، ويدعو الناسَ إلى تحصيلها في نطاق مقصده الكبير؛ مقصد البناء الفكري. وفيما يأتي بيانٌ لبعضها:

أ. التحرر الفكري:

لعل العنصر الرئيس الذي يقوم عليه المنهج الفكري الرشيد هو تحرير الفكر في مسيرة بحثه عن الحق، بحيث يكون العقلُ متحرراً في التفكير من كل الموجهات المسبقة التي قد تحرف مسيرة الفكر عن اتجاهها الصحيح، لتنتهي إلى ما هو مرسومٌ سلفاً من نتائج على نهج فرعون في قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩﴾ (غافر: ٢٩). فالفكر إذا فقد الحرية وقع في التقليد، وفقد القدرة على الريادة والابتكار، ومن المعلوم أنه لا تكون نهضةٌ ولا تقدُّم إلا بالريادة الفكرية، وتاريخ الحضارات، وحركات النهضة شاهدٌ على ذلك في القديم والحديث.

وينطلق التوجيه القرآني في هذا الصدد من أنَّ الحريةَ في الفكر تُنشِّط حركة العقل؛ إذ بها يكون العقل منطلقاً من دون حدٍّ يحدُّه، أو عائق يُعوِّقه، وحينئذٍ تقوده حركته إلى أبعاد يكتشف فيها أقداراً من الحقائق لا يكون قادراً عليها لو كان مُقيَّداً أو مُوجَّهاً إلى أُفق مُحدَّد. فحرية الفكر بهذا المعنى هي إذن من أسباب القوة للعقل؛ إذ بها ترتفع كفاءته في أداء مهمة الكشف عن الحقيقة، وتوظيفها فيما ينفع الإنسان، ولهذا جاءت الشريعةُ بأحكام وتوجيهات تُلزِم بهذه الحرية، وهو ما يندرج ضمن مقصد حفظ العقل. وتتوزع هذه الأحكام بين أحكام تُحرِّر الفكر من أسباب تعطيلٍ داخلية تتأسَّس في ذات الفرد، وأُخرى تُحرِّره من أسباب تعطيلٍ تتسلَّط عليه من خارجه.

أمَّا النوع الأول فمثاله ما جاء في القرآن الكريم من أمرٍ بالتحرر من قيود العادات والتقاليد الفاسدة التي يُسلِّطها المجتمع على أفراده، فتكون عائقة دون انطلاق فكره في حركةٍ حرة للتعامل مع موضوع النظر؛ إذ هي تُوجِّه هذا الفكر لينتهي عند النظر في القضايا المطروحة عليه إلى ما يواطئ تلك العادات والتقاليد، وهو ما جاء فيه نكيرٌ شديدٌ ونهيٌ غليظ، في مثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٢٤ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ (الزخرف: ٢٣-٢٥).

فهذا الإنكار الشديد لفعل هؤلاء، وهذا العقاب الذي أصابهم، إنما هو بسبب امتناعهم عن تحرير عقولهم من سطوة ما عليه آباؤهم من معتقدات، فاتجهت الحركة الفكرية لهذه العقول اتجاهاً خاطئاً حاد بهم عن الحق، وأوقعهم في الضلال. فعلى الإنسان إذن – بحكم الشرع– أن يتحرّرَ من موروثات الآباء، لينظر في المعروض عليه من الآراء، بفكرٍ حر يتَّبع الحجة، وينتهي إلى ما تنهيه إليه، عندئذٍ فإن البناء الفكري للعقل يتأسَّس على اللبنة الأولى الأساسية من لبناته.

ومثلما يُوجِّه القرآنُ الكريم المسلم إلى التحرر من الموروثات المضلة للآباء فإنه يُوجِّهه أيضاً إلى التحرر من كل سطوة خارجية تُعوِّق الفكر عن أن ينحو نحو الاتجاه الصحيح، وذلك مثل سطوة السلطان السياسي، أو الكهنوت الديني، أو تأثيرات الشعوذة والعرافة والسحر؛ لذا يتعيَّن على الإنسان أن يتحرّرَ من كل هذه المُؤثِّرات التي تُقيِّد عقله – بصرف النظر عن نوعها– لتكون حركته الفكرية خاضعة فقط لما تلزمها به قواعد النظر المنهجية. وقد تصل قوة الوجوب لتحرير العقل من هذه السطوة إلى وجوب الهجرة من الدائرة الجغرافية التي تكون ضاربة فيها، وذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾ (النساء: ٩٧). فالآية الكريمة –كما ذكر الإمام الطبري– نزلت في جماعةٍ اعتذروا من عدم إيمانهم بقولهم: "كنَّا مستضعفين في الأرض، يستضعفنا أهل الشرك بالله في أرضنا وبلادنا بكثرة عددهم وقوتهم، فيمنعونا من الإيمان بالله،"[٩] فلم يُقبل عذرُهم؛ إذ كان عليهم أن يُحرِّروا عقولهم من سطوة قومهم المشركين، بالهجرة ليصلوا بنظرهم الحرِّ إلى حقيقة الإيمان بالله وتوحيده.

وأمَّا النوع الثاني الذي هو التوجيه القرآني بتحرير الفكر من المعوقات الداخلية الناشئة من ذات الإنسان، فمثاله ما جاء من أمرٍ بدفع الهوى النفسي على اختلاف أنواعه؛ ذلك الذي يتمكَّن من النفس، فيُوجِّه حركةَ العقل في البحث عن الحقائق إلى ما يوافقه هو من النتائج، ويصرفه عن اتباع الحجة ليصل إلى الحقيقة، وذلك مثل ما جاء في

[٩] الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. **جامع البيان**، القاهرة: مكتب التحقيق بدار هجر، ط١، ٢٠٠١م، مج٧، ص٣٧٩.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ (الأنعام: ١١٩). ففي هذه الآية إنكار شديد على مَن حكَّم الهوى على عقله، ولم يُحكِّم الدليل، فانتهى به الأمرُ إلى الضلال بتحكيم الهوى، ولو حكَّم الدليلَ لانتهى إلى العلم. فهذا المسلكُ الذي لا يُحرِّر فيه الإنسان فكرَه من الهوى هو مسلكٌ مُحرَّم؛ إذ الواجبُ التحرُّر من الهوى، وهو ما انتهى إليه الرازي في شرحه لهذه الآية؛ إذ قال: "دلَّت هذه الآية على أن القولَ في الدين بمجرد التقليد حرام؛ لأن القول بالتقليد قولٌ بمحض الهوى والشهوة، والآية دلَّت على أن ذلك حرام."[١٠]

ويصدق هذا التحريم لسطوة الهوى على الفكر كل أنواع الهوى؛ سواء أكان مُتمثِّلاً في هوى الشهوات المادية من مال وملذات مختلفة، أم في هوى العواطف من حُبٍّ وكُره، وشفقةٍ وعداوةٍ، فأيّما ضرْب من هذه الضروب حَكم القرآن الكريم بوجوب دفعه أن يكون له سطوة على العقل، فيُوجِّه حركته الفكرية حتى تكون تلك الحركة مُوجَّهة بمحض الدليل، كيما تصل إلى الحق، وفي ذلك جاء قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ (النساء: ١٣٥). فهذا أمرٌ صريحٌ بوجوب تحرير الفكر من هوى الميل إلى القرابة، وهوى الحظوة لدى الغني، والشفقة على الفقير، وإرساله طليقاً وفق القواعد التي تنتهي به إلى القسط الذي هو الحق. وفي مثل هذا جاء قوله تعالى في وجوب التحرر من هوى العداوة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ (المائدة: ٨).

ويُلحَق بالهوى في نهي القرآن عنه أن يكون مُكبِّلاً للفكر ما يُكبِّله أيضاً من بعض الخرافات والأوهام التي تجعل العقل يتجه في البحث عن الحقيقة إلى غير مظانها الصحيحة، وإنما إلى أسباب لها موهومة، وذلك من مثل: التطيُّر، والتنجيم، وأنواع

[١٠] الرازي، فخر الدين محمد بن عمر التميمي. **التفسير الكبير**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٤، ٢٠٠١م، مج٥، ص١٢٩.

الشعوذة. وممَّا جاء في ذلك من النهي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ (الأعراف: ١٣١). فالنكيرُ على هؤلاء القوم إنما هو بسبب رهْن عقولهم في البحث عن أسباب ما يصيبهم من نفع وضرٍّ إلى وهم التطيُّر، ففسَّروا به هذه الأسباب، وكان حَريّاً بهم أن يُحرِّروا الفكر من هذا الوهم، فيبحثوا عن الأسباب الحقيقية لما يصيبهم من النفع والضر في أفعالهم هم لا في هذه الأوهام، وقد أخطأت عقولهم الحقيقة نتيجة عدم تحريرها من مثل هذه الأوهام.

ب. شمولية النظر:

هي صفةٌ فكرية يكون بها الفكر منطلقاً في البحث من النظر في أوسع دائرة ممكنة فيما يتعلق بموضوع بحثه، بحيث لا يترك ممَّا له صلة بالقضية التي تصدَّى لها بالدرس إلا وضعه تحت النظر من دون أن يستبعد منه شيئاً لأي سبب من الأسباب. وهذا المسار هو الذي ينتهي بالفكر إلى تكوين الرأي وتقدير الأحكام، باستخلاص الكلي من النظر في الجزئيات الكثيرة والعيِّنات الشخصية المتعددة، فتكون هذه الآراء والأحكام أقرب إلى الحقيقة، وأشبه بالصواب، بما جمعت من التفاصيل والجزئيات على نطاق واسع.

وتقابل هذه الصفة الشمولية صفةُ الجزئية والمحدودية في النظر، وهي صفةٌ يقتصر فيها الفكر الباحث على مجال ضيِّق ممَّا يتعلق بموضوع بحثه، وعلى العدد المحدود من الجزئيات والتفاصيل فيه، فينتهي إلى أحكام وآراء مأخوذة من هذا المجال المحدود، تتصف هي أيضاً بصفة الجزئية والمحدودية، وتفوته معطيات أُخرى لو اطَّلع عليها وراعاها في البحث لتغيَّر بعض ما انتهى إليه من الآراء والأحكام الجزئية، مثل حال مَن أراد أن يعرف حقيقة جسم ماثل أمامه، فأخذ يتحسَّسه، واكتفى بتلمُّس جزء أسطواني من أجزائه، فحكم بأنه سارية رخامية، والحال أنها ليست إلا رجل فيل، ولو تلمَّس سائر الجسم لعرف الحقيقة، ولكن اكتفاءه بمجال محدود أوقعه في الخطأ.

وحين يُبنى الفكر على النظر الكلي الشامل الذي يتناول به الموضوع في جزئياته وتفاصيله لينتهي منها إلى الرأي العام المبني عليها كلها، فإنه يلتقي مع الآخرين على

صعيد نفس النتيجة التي انتهوا هم إليها بالمنهج نفسه، أو على صعيد ما يقاربها على الأقل؛ إذ الكل قد صعد إلى الموقع الكلي الذي يتراءون فيه على صعيد واحد، فيما يُشبه الجماعة من الناس حينما يتفحَّصون باستقصاء إحدى البناءات في جزئياتها الداخلية، ثم ينتهون من ذلك إلى الخروج منها لتكوين الفكرة الكلية عنها بالنظر إليها من خارجها؛ فإنهم حينئذٍ يلتقون في هذا الخارج وهم على علم متجانس تَكوَّن لديهم عن هذه البناية، استخلاصاً لصورتها الكلية من جزئياتها التفصيلية، وكذا حال روَّاد المعرفة عند الخلوص من الجزئيات إلى الكليات في تصوُّر الحقائق، وتقدير الأحكام.

وأمَّا إذا بُنِي الفكر على النظر الجزئي فإن الناظر على هذا النحو سيجد نفسه مخالفاً الآخرين، ومناقضاً لهم؛ إذ سيظل حبيس الجزئية من مادة نظره، ويصدر في حكمه مقتصراً عليها، في حين يصدر الآخر في حكمه عن جزئيات أُخرى، فينتهي كلٌّ إلى وادٍ لا يلتقي فيه مع الآخر، وهو ما يشبه حال أفراد الجماعة الذين ارتادوا البناية الآنف ذكرها، غير أن كُلّاً منهم قد صدر في تصوُّر حقيقتها اقتصاراً على مشاهداته في الغرفة التي ظل حبيساً فيها، وهي غير الغرف التي صدر عنها الآخرون، فإذا لكلٍّ تصوُّرُه الخاص المخالف لتصوُّرات الآخرين، فلا يكون بينهم التقاء في التصوُّر، ولا في التقدير، حتى إذا خرجوا تخاصموا وافترقوا بسبب اختلاف الصور التي حصلت لهم من ذلك النظر الجزئي، فيكون لانحباس العقل في الجزئيات النتيجة السيئة، لا على المستوى المعرفي فقط، وإنما على المستوى الاجتماعي، ويكون على عكس ذلك العقل الشمولي الكلي في النظر المعرفي.

ولو استعرضنا التاريخ الثقافي السياسي الإسلامي لوجدنا أن الخوارج –مثلاً– هم أكثر الناس افتراقاً فيما بينهم، حتى فاقت فِرقهم في العدد فِرق أي مذهب آخر، وأكثرهم افتراقاً مع المسلمين بوجه عام، وقد أحدثوا في المجتمع من الفتنة ما أفشى فيه الاضطراب، وعرقل حركته النامية في مسيرة البناء الحضاري. ونحسب أن من أهم أسباب ذلك ما كانوا عليه من فكر جزئي، بالرغم ممَّا يُرى من صدقهم الديني، وحسن نيتهم؛ فقد كانوا يتخذون الموقف الخطير بناءً على جزئية واحدة من جزئيات الأدلة الشرعية من دون نظر

إلى الجزئيات الأُخرى في نفس موضوعها، فيخطئون الحقيقة، ويكون بينهم الافتراق، وذلك على نحو ما حدث في موقفهم المشهور من التحكيم، الذي نشأ عن نظرهم الجزئي الضيق في استخلاص معناه من دائرة نصية ضيقة لا تكاد تزيد على الآية القرآنية الواحدة، وتنزيله على الواقعة التاريخية.[١١]

واليوم يعاني المسلمون كثيراً من مظاهر الفرقة والتدابر بين المذاهب والطوائف والحركات والاتجاهات بسببٍ من هذا التقدير الجزئي الذي طبع الكثير من الأذهان؛ فكلٌّ ينظر في حديث نبوي واحد، أو آية قرآنية واحدة، ثم يُصدِر في تقريرٍ رأيَه، ويبني موقفه، وذلك في غير جمعٍ بين الأحاديث والآيات الواردة في الموضوع نفسه، لتُعالَج بالنظر الكلي المفضي إلى الرأي الصواب الذي يلتقي عليه الأكثرون، فتكون بينهم الوحدة والوفاق. ولعل معظم ما تعانيه الأُمة اليوم من الافتراق، وما تتعرَّض له من المحن، وما تتعثَّر به الخطى نحو النهضة، ناشئ عن المواقف التي تُبنى على جزئيات من الأدلة الشرعية، في غير نظر شامل إلى مجموع ما هو وارد في الموضوع الذي وردت فيه، وعلاقته بأسبابه ومناطاته ومقاصده، ليستبين فيه الحق الذي تلتقي عليه الأغلبية، وتحفظ به الوحدة.

وقد جاء القرآن الكريم يُوجِّه الأنظار –من أجل معرفة الحقيقة– إلى مجال فسيح من مظان هذه الحقيقة، يشمل في الوجود عالم الغيب وعالم الشهادة، ويشمل في الزمان الحياة الدنيا والحياة الأُخرى، ويشمل في الإنسان مشهد الجسد ومشهد الروح، ويشمل في المكان عالم الأرض وعالم السماوات، حتى صار الوجود كله مسرحاً لتفكير العقل، يعود فيه بالجزئيات إلى الكليات، وبالمفترقات إلى ما يُوحِّدها. وعلى هذا النحو تربَّى الفكر الإسلامي، فأثمر تلك العلوم العقلية والنقلية، صاعداً فيها من الجزئيات إلى القوانين، على نحو علوم الأصول وعلوم الطبيعة، ونازلاً من هذه القوانين إلى الجزئيات

[١١] قالوا: "لا نُحكِّم الرجال في دين الله؛" لأنه ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ ٥٧﴾ (الأنعام: ٥٧) لم ينظروا نظرة شاملة إلى التحكيم في معانيه المختلفة كما جاءت بها نصوص الوحي، وكما وردت في المواقف النبوية، فانتهوا إلى ما انتهوا إليه من موقف اختلَّت به وحدة الأُمة، ونبتت به الفتنة. وقد ناظرهم ابن عباس في ذلك بفكر شامل جمع بين كل الأدلة في ذات المسألة، فرجع منهم نفر إلى الصواب، وتمادى الكثيرون على الخطأ بسبب النظر الجزئي.

والتفاصيل لتطبيقها في مختلف مفاصل الحياة، ومن ذلك نشأت الحضارة الإسلامية. فلمَّا ارتكس ذلك الفكر فأصبح جزئياً صار غير قادر على التأصيل القانوني الكلي، وغرق في محدودية التفاصيل التي لم يتمكَّن معها من مواصلة الابتكار والريادة، فتوقَّف العطاء، ووجب حينئذٍ إعادة البناء الفكري على أساس الكلية والشمول كما جاء القرآنُ الكريم يُوجِّه إلى ذلك في مقاصده المعرفية.

ت. واقعية التفكير:

المقصود بهذه الصفة هو بناء الفكر على أن يتطبَّع في البحث عن الحقيقة، وفي تقدير المواقف والأحكام، وإيجاد الحلول للمشكلات المطروحة بطابع الانطلاق من الواقع، مُتمثِّلاً في عناصر الطبيعة، وفي مشاهد الحياة الإنسانية الماضية والماثلة، وأن تُتَّخذ من هذه العناصر والمشاهد المادة الأولية للنظر والبحث؛ فعن طريقها يكون الانطلاقُ في بحث حقيقتها في ذاتها، والبحث عمَّا وراءها من حقائق غائبة عن الحسِّ، يمكن أن تُدرَك بالعقل. إذن، فالعقل بهذه الخصيصة في البناء الفكري يراوح في حركته بين الظواهر والدلالات، وبين الأسباب والمُسبِّبات، فيُدرِك ما ظهر من الحقيقة وما خفي منها في نطاق قدرته على الإدراك، ويبني من ذلك كله تصوراته المعرفية النظرية والعملية؛ ما كان منها مادياً، أو معنوياً روحياً.

ويقابل هذه الصفة في البناء الفكري صفةُ المثالية المجردة، وهي الصفة التي يكون بها العقل في حركته الفكرية مُنغلِقاً دون الواقع المحسوس، ومُستغرِقاً في التأمل المجرد الذي ينطلق من الفكرة المثالية، وينتهي إليها، في غير مقايسة بما هو واقع مشهود، فيؤول الأمر إلى بناء تصورات في عالم الطبيعة تُخالِطها الخرافات والأساطير، وبناء تصورات في حياة الناس تُجانِب كثيراً ما فيه مصالحهم وتنمية أوضاعهم، وما ذلك إلا نتيجة عمل العقل في حركة التفكير على صنع الأفكار وصوغ الحلول لمعالجة المشكلات من ذات نفسه المجردة على غير بصيرة بما يجري به واقع الطبيعة وواقع الحياة.

ولتوطين العقل على هذه الخصيصة الفكرية، فقد حوَّل القرآن الكريم وجهة العقول من النظر المجرد الذي كانت عليه الثقافات السائدة (الثقافة الهلينية، والثقافة الغنوصية

الشرقية) إلى النظر في مشاهد الكون وواقع الحياة الإنسانية في غابرها وحاضرها، ليكون ذلك منطلقاً للعلم بالحقائق الذاتية، للمشهود في عناصره وطبائعه، ثم النفاذ منها إلى ما وراءها من القوانين التي تجري عليها، ومن الأسباب التي تنتهي إليها، فتُبنى التصورات المتعلقة بالوجود والمناهج المتعلقة بالحياة على أسس متينة من الحق، تمضي به الإنسانية قُدُماً في مسيرة الحضارة، وذلك ما كان؛ إذ نشأت عن هذا الفكر الواقعي العلوم التجريبية في مجال الطبيعة، والعلوم الفقهية في المجال القانوني، وكلٌّ من هذا وذاك أسهم بقدر وافٍ في التقدُّم الحضاري للإنسانية.

ومن الآثار الإيجابية لخصيصة الواقعية أن الفكر حين يُبنى على هذه الصفة يكون منطلقاً من معطيات الواقع الذي هو مادة موضوعية مشتركة بين الناظرين، فيكون ذلك منطلقاً مُوحَّداً يجمع الباحثين والناظرين على صعيد مُوحَّد، يتحاكمون فيه إلى ما هو موضوعي مشترك، فيكون بينهم التلاقي في المنطلق الذي ينتهي غالباً إلى التلاقي في المنتهى من النتائج، فتتوفَّر ضمانات الوفاق، وتضيق أسباب الفراق، وفي ذلك ما فيه من أسباب الوحدة الثقافية والتوافق الاجتماعي؛ فثمار هذه الخصيصة في البناء الفكري ليست مقتصرة على الثمار المعرفية فحسب، بل هي ثمار في مجال العمران الاجتماعي.

وحين يكون الفكر تجريدياً مثالياً في تقدير الأحكام والمواقف، فإنَّ كل فرد أو مجموعة أو أصحاب مذهب يبنون لهم بهذا المسلك آراء وتصورات مثالية قابلة لأن يذهب فيها كلٌّ منهم مذهباً خاصاً به؛ إذ هي غير خاضعة لميزان الواقع الموضوعي الذي يراد معالجته، فيؤدي هذا الاختلاف في التقدير، إلى تشبّث كلٍ بما انتهى إليه، في تعصُّب يلغي الآخرين وتصوراتهم المثالية المخالفة، وينتهي الأمر إلى ضرر معرفيٍّ وضرر اجتماعي معاً.

وإذا عدنا إلى القرآن الكريم لتقصِّي هذه اللبنة من لبنات البناء الفكري فإننا نجده دائم التوجيه إلى الانطلاق في التبيُّن المعرفي من مشاهد الكون ومشاهد الإنسان، ومن آثار الأقوام الغابرة، وصولاً إلى معرفة الحقيقة الذاتية للكون والإنسان، ومعرفة ما وراءها من الحقائق الغيبية، ومعرفة السنن الاجتماعية في قيام الحضارات وسقوطها، قال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ

قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ (العنكبوت: ٢٠)، وقال ﷻ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾ (الروم: ٤٢). فالوصول إلى هذه الحقائق إنما يكون بالفكر الواقعي، الذي ينطلق من البحث في واقع الكون والإنسان، لا من المثاليات والمجردات.

ويعد هذا التوجيه القرآني ثورة منهجية بالنظر إلى ما كان سائداً في ذلك العصر من عقلية مثالية مجردة، تمثلت في الفلسفة اليونانية القائمة على المنطق الأرسطي الصوري، والفلسفة الشرقية القائمة على التصفية الروحية. وهاتان الفلسفتان لا تتخذان الواقع منطلقاً للتفكير من أجل معرفة الحقيقة، وإنما يعد ذلك طريقاً من الطرائق المُضلِّلة عن مسلك الحقيقة الصحيح. وبهذه الواقعية في الفكر أثمرت الثقافة الإسلامية ذلك التراث العظيم من العمران العلمي المُتمثِّل في علوم الشريعة، وعلوم الطبيعة سواء بسواء.[١٢]

وحين يكون الفكر الباحث عن الحقيقة مثالياً تجريدياً، غافلاً عن الواقع، فإنه لا يفوز بطائل؛ لا في مجال الطبيعة، ولا في مجال الشريعة. فأمَّا في مجال الطبيعة فإنه ينتهي إلى الأوهام والخرافات والأساطير، مثل: التنجيم، والسحر، والتطيُّر، وهو بابٌ واسعٌ من الأبواب المفضية إلى الضلال، والتطرف شعبةٌ من شعبه. وأمَّا في مجال الشريعة فإن الفكر المثالي الغافل عن تحقيق المناط يحكم حقيقةً بأحكام لا تناسبه، فينتهي به الأمر إلى الحرج والشدَّة، بل إلى باب من أبواب البدعة، كما أشار إليه الإمام الشاطبي في معرض حديثه عن البدعة التي تنشأ من تحريف الأدلة عن مواضعها: "بأن يرِد الدليل على مناط، فيُصرف عن ذلك المناط إلى أمر آخر، موهماً أن المناطين واحد، وهو من خفيات تحريف الكلم عن مواضعه، والعياذ بالله."[١٣] فالبدعة إنما هي ناشئة -في كثير من أحوالها- من صرف الحكم عن مناطه الحقيقي إلى مناط آخر خارج عنه؛ وذلك أنَّ الناظرَ لم يكن له تحقيقٌ في هذا المناط بتفكير واقعي يُفرِّق بين ما هو مناط للحكم وما ليس مناطاً له. والبدعة -كما هو معلوم- هي أحد أخطر أبواب التطرُّف.

---

[١٢] انظر هذه المنهجية الواقعية في:

- إقبال، **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، مرجع سابق، ص١٥٢.

[١٣] الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى. **الاعتصام**، بيروت: دار المعرفة، د.ت، ج١، ص٢٤٩.

وفي هذا الصدد، يجب الإشارة إلى أن المقصود بالواقعية -كما أسلفنا- لا يتضمَّن ما ينادي به بعضهم من مجاراةٍ للواقع السائد في حياة الناس، وخضوعٍ له، وتكييفٍ للمواقف بل للأفكار بحسبه، وجعله إماماً للحق، حاكماً عليه؛ فتلك دعوة هدَّامة تُلغي أو تكاد موضوعية الحق وثباته، وإنما المقصود بالواقعية الانطلاق من الواقع في النظر الباحث عن الحقيقة، ليكون هذا الواقع مراعَياً في التقدير عند معالجة المشكلات، لا الحاكم على التقدير، المُحدِّد للحقائق.

ث. المقارنة النقدية (التبيُّن):

هي صفةٌ يكون بها العقلُ في التفكير منفتحاً على الآراء المختلفة المتعلقة بموضوع بحثه، بما في ذلك الآراء المتقابلة، وتلك المتناقضة، فينظر فيها نظر المقارنة بينها، في غير حجب لشيء منها، أو استبعاد له من دائرة البحث، بحيث يوضع على بساط النظر كل ما له علاقة بالموضوع المنظور فيه؛ من: الأفكار، والروايات، والاجتهادات، بصرف النظر عمَّا بينها من اختلاف أو تعارض، ثم يقوم العقل بالجولان فيها جولان مقابلة بينها، ويعمد إلى تمحيصها ونقدها؛ ليخلص من ذلك كله إلى استبقاء ما هو أشبه منها بالحق، واستبعاد ما هو أشبه منها بالباطل، وصولاً إلى تقرير ما يراه صواباً في موضوع البحث.

ويقابل هذه الصفة المنهجية الفكرية صفةُ ما يمكن أن نُسمِّيه الخطية في الفكر، وهي صفةٌ يقتصر فيها العقل عند النظر على الرأي الواحد ممَّا يرد في موضوع بحثه، مُستبعِداً الآراء المخالفة له في خطية لا تتيح له الالتفات ذات اليمين أو ذات الشمال لرؤية ما هو خارج عن الخط المرسوم، فلا تكون له فرصة المقارنة بين الآراء الواردة في الموضوع نفسه، ولا فرصة النقد والتمحيص ليقع الانتهاء إلى ما هو أشبه بالصواب، وتكون النتيجة اعتماد ما ورد من رأي وحيد على أنه هو الحق في غيبة آراء أُخرى قد يكون الحق فيها، أو قد تكون مشتملة على بعض الحق، ولكن ذلك كله يُهدَر بسبب هذا النظر الخطي الأحادي الاتجاه.

والفكر المقارن النقدي تكون حظوظه في الوصول إلى الحق أكثر مقارنةً بالفكر الخطي الأحادي، وتتوافر معه فرصة للتقارب بين أصحاب الآراء والمذاهب المختلفة أو

المتعارضة؛ إذ الاطِّلاع على هذه الآراء والمذاهب وتناولها بالدرس يُنشِئ في النفس نوعاً من الاستئناس، وينفي منها الشعور الطبيعي بالعداوة لما هو مخالف باعتبار أنه مجهول، ولا سيما أن الإنسانّ عدو ما يجهل. أمَّا الفكر الخطي الأحادي فإنه يصنع في النفوس أسواراً حاجبةً لذوي الآراء والمذاهب المخالفة، وقد تتطور هذه الأسوار شيئاً فشيئاً إلى عداوات تُسبِّب اختلالاً في بنية المجتمع الثقافية والاجتماعية.

وقد حرص القرآن الكريم، وهو يُربِّي الفكر المسلم على المقارنة والنقد، على أن يورد في مضمار عرض المعتقدات الإسلامية ما هو مخالف لها من المعتقدات؛ ليضرب بعضها ببعض في مقارنة نقدية تُسْفِر بعد التمحيص عن بيان الحق فيما هو معروض من المعتقدات. وقد وردت في هذا الخصوص مواقف كثيرة، منها ما جاء في عرض وحدانية الله تعالى من إيراد للأقوال المخالفة، ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (التوبة: ٣٠) فإيراد هذه الأقوال المخالفة إنما هو للمقابلة بين المتضادات لكي يظهر الحق من بينها، وهو هنا حق التوحيد بإزاء هذه الأقوال الشركية.

ومن هذه الممارسة القرآنية رسمَ القرآنُ الكريم مبدأً منهجياً يتعلق بهذا الشأن، هو مبدأ التبيُّن الذي جاء في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾ (الحجرات: ٦). فالتبيُّن في سياق هذه الآية يقتضي أن يكون معناه عدم الاقتصار في تقصِّي الحقيقة على الرواية الواحدة، وأن يكون ذلك بمقابلتها بأضدادها من الروايات، ثم إجراء المقارنة بين جميعها، وتعريضها للنقد حتى يتميّز الحقُ فيها من الباطل. أمَّا الاقتصارُ على الرواية الواحدة فهو عرضة لأن يوقع في الخطأ.

وبوجهٍ عام، فقد نشأ الفكر الإسلامي على هذه الصفة من المقارنة النقدية، وهو ما بدا –مثلاً– في التطلب الدؤوب في كل العلوم الإسلامية للمخالف من الآراء؛ بُغية درسها، وتمحيصها، واستبقاء ما هو حق فيها، واستبعاد ما هو باطل منها. فإذا لم توجد آراء معارضة فعلية افترضت افتراضاً في الصيغة المشهورة التي جرت عليها المؤلفات، وهي:

"فإن قيل... قلت..."، وقد ارتقى ذلك في منهج أصول الفقه إلى أن أصبح أصلاً منهجياً معرفياً عُبِّر عنه بتطلب المعارض في الاجتهاد الفقهي، وهو ما ضبطه ابن عاشور في معرض بيان الحاجة إلى معرفة مقاصد الشريعة: "البحث عمَّا يعارض الأدلة التي لاحت للمجتهد، والتي استكمل إعمال نظره في استفادة مدلولاتها ليستيقن أن تلك الأدلة سالمةٌ ممَّا يبطل دلالتها، ويقضي عليها بالإلغاء والتنقيح."[١٤] ونذكر في هذا المجال كيف أنَّ الإمام الطبريَّ عَمَد في تاريخه إلى إيراد جميع ما وصله من الروايات على شدَّة اختلافها وتناقضها؛ ليضعها بين يدي الباحث بوصفها حصيلةً يُعمل فيها الفكر بالمقارنة والنقد، وصولاً إلى تقرير ما هو حق منها، في غير مصادرةٍ لرأي أو رواية، وهذا من مظاهر الفكر المقارن النقدي الذي ربَّى عليه القرآن الكريم عقول المسلمين.

ويُظهِر التقصِّي أن أكثر أهل المذاهب بُعْداً عن الحقيقة، وإيغالاً في التطرُّف، وتسبُّباً في الاضطراب الاجتماعي، هم أولئك الذين يفتقرون إلى المعرفة بما عند الآخرين من الآراء والأفكار، ويقتصرون على ما عند الذات منها، بحسبان أنها الحق الذي لا حق غيره. وبالمقابل، فإن أكثر العلماء سماحةً مع الآخرين، وإعذاراً لهم، وتعاوناً معهم، هم أولئك الذين اتَّسعت معارفهم بالمذاهب واطِّلاعهم عليها، واتَّسعت مشاركتهم في العلوم المقارنة التي تجمع مختلف الآراء (المتوافق منها، والمتعارض). أمَّا المقتصرون في معارفهم على العلم الواحد والمذهب الواحد فإن الحال ينتهي بهم غالباً إلى التعصب الذي يرفض الآخرين، وينفر منهم.

ولو مثَّلنا لهذا الملحظ بالإمام الطبري في القديم، والإمام محمد الطاهر بن عاشور في الحديث، بما عليه كلٌّ منهما من سعة علمٍ بآراء الآخرين ومذاهبهم، وما أثمر ذلك من التسامح والإعذار لكان مصداقاً لما قلنا، ومصداقاً له أيضاً لو مثَّلنا في الحال المقابلة بما نرى اليوم من تشتُّت، بل صراع بين الجماعات المتمذهبة بمذاهب شتَّى؛ نتيجة ما تربَّت عليه في تكوينها الفكري من انغلاقٍ تعليمي على المذهب الواحد، وصرفٍ للنظر عن أي مذهب غيره؛ ما أفضى إلى اعتقاد أنه هو الحق المطلق، واعتبار أن ذلك الغير هو الباطل

[١٤] ابن عاشور، محمد الطاهر. **مقاصد الشريعة الإسلامية**، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ج٣، ص٤٠.

المطلق، الجدير بالعداء والرفض، فإذا هي فُرقةٌ وخصامٌ واختلالٌ في وحدة الأُمة، وخللٌ في العمران.

ج. الحوارية:

هي صفةٌ يتربَّى عليها العقلُ، فيصبح في حركته الفكرية ممتداً إلى عقول الآخرين، يعرض عليها ما توصَّل إليه من أفكار: شرحاً لحقيقتها، واحتجاجاً لها؛ بُغية بيانها لهذه العقول، ووضعها أمامها على محكِّ الامتحان، ويصبح أيضاً ممتداً إليها لاستبانة ما توصَّلت إليه هي من آراء؛ للنظر فيها، والوقوف على ما تضمَّنته من قوة وضعف؛ استفادةً من قوتها، واتِّقاءً لضعفها، وذلك في حركة تفاعل مشترك بين العقول، تنشر فيه المذاهب بما تتكوَّن منه من الأفكار والمعتقدات للتداول؛ عرضاً، وتفهُّماً، ونقداً، وتصحيحاً، واقتباساً، بحيث تمتد هذه العقول بعضها إلى بعض، وينفسح بعضها لبعض.

ويقابل هذه الصفة الفكرية صفة الانغلاق الفكري، وهي حال العقل حينما يكون مقتصراً على ما توصَّل إليه من الرأي، غير ساعٍ إلى عرض ذلك الرأي على الآخرين للنظر فيه، وغير ساعٍ إليهم ليعرف ما توصَّلوا هم إليه في الموضوع نفسه، ليستفيد ممَّا قد يكون فاته من الحق. ولا شك في أن العقل إذا تربَّى على الانغلاق على ما اقتنع به من رأي، وانكمش عن أن يمتد إلى آراء الآخرين، فإنه يصبح أشبه بمَن يعيش على جزيرة معزولة، لا تمتد إلى غيرها، ولا يمتد غيرها إليها، فتُفتقَد فرص التعديل للمرئيات العقلية، ويحدث التمادي في الخطأ، وتنشأ أسباب التدابر بين العقول، وقد ينتهي ذلك إلى التوتر الثقافي والاجتماعي؛ فالحوارية إذن تُرشِّد المسار الفكري معرفياً، وتزيل أسباب التوتر والخلل في المجتمع.

وقد اهتم القرآن الكريم بتربية العقول على الحوار بين المسلمين وأصحاب الملل الأُخرى، وكذا الحوار بين المسلمين أنفسهم على اختلاف مذاهبهم. وما تشريع مجادلة المخالفين بالتي هي أحسن، وتشريع الشورى أسلوباً في تداول الرأي بين المسلمين إلا مظهر من مظاهر التشريع للحوار، وسبب من أسباب الرشد المعرفي والاستقرار الاجتماعي بين المسلمين خاصة، وبني الإنسان بوجه عام.

وقد جاءت السُّنة النبوية تُؤكِّد التشريع للحوار أسلوباً في التعامل بين أصحاب الآراء المختلفة، وتربِّي الفكر الإسلامي عليه، وهو ما يتبيَّن فيما كان يسلكه النبيُّ ﷺ في تعامله مع ما يظهر من آراء مخالفة لرأيه من جهة أصحابه؛ إذ تعمَّد أن يسلكَ معهم فيها سبيل الحوار، ويدفعهم إلى ذلك دفعاً حتى ينتهي الأمر إلى ضرْب من التوافق بين الطرفين؛ ثمرةً لهذا المسلك الحواري. فإذا رأى منهم إحجاماً عن الحوار تهيُّباً لمنزلته النبوية، أو تنازلاً عن حقوقهم، حملهم على إظهار ما في ضمائرهم حملاً، في حوار بينه وبينهم؛ ليكون تربيةً فكريةً لهم، وإرشاداً لمَن يأتي بعدهم إلى هذا المسلك التربوي في بناء الفكر.[١٥] ويتبيَّن ذلك أيضاً فيما كان يسلكه ﷺ مع المخالفين من أصحاب الديانات والمذاهب الأُخرى؛ إذ كان يجادلهم في مذاهبهم ومعتقداتهم، ويدعوهم إلى الحوار فيما فيه الخلاف بينه وبينهم؛ ليستبين الحق من هذا الحوار، ويلتقي الطرفان على ما يتبيَّن من هذا الحق.[١٦] وأحد أهم أغراض ذلك كله هو تربيةُ العقل المسلم على الفكر الحواري الذي ينفتح على المخالفين؛ بالإفضاء إليهم بما عنده، وسماع ما عندهم، لينتهي الأمر إلى ظَفر بالصواب، وتقارُب يتأسَّس على القَبول المتبادل نفسياً وعقلياً، بما يُرشِّد الفكر، ويحفظ الوحدة، ويحول دون التشتُّت والفُرقة.

فالثقافة الإسلامية بُنِيت على الحوار بين مختلف المذاهب وأصحاب الآراء، وهو ما تجلَّى فيما كان يدور من مناظرات واسعة بين أهل الفكر والعلم من مختلف المذاهب، وفيما حفظه لنا التراث المكتوب من طريقة في التأليف تقوم على عرض الآراء المخالفة،

---

[١٥] من أمثلة ذلك ما وقع إثر غزوة حنين لـمَّا تألَّف ﷺ نفراً من قريش بشيء من الفيء ولم يعطِ الأنصار، فوجد بعضهم من ذلك، وقالوا فيه كلاماً بلغ النبي ﷺ، فناداهم يشرح لهم الأسباب، ويحاورهم فيما فعل، فكانوا لا يجيبون بحججهم تهيُّباً له، فقال لهم يدفعهم إلى الحوار: "ما منعكم أن تجيبوا رسول الله؟... لو شئتم قلتم فلصدقتم ولصُدِّقتم: أتيتنا مُكذَّباً فصدَّقناك، وعائلاً فآسيناك..."، وما زال بهم يحاورهم في الأمر، ويدفعهم إلى الحوار حتى انتهى الجميع إلى وفاق. انظر:

– البخاري، محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**، تحقيق: مصطفى ديب البغا، بيروت: دار ابن كثير، ط٢، ١٩٨٧م، كتاب: المغازي، باب: غزوة الطائف، حديث رقم٤٠٧٥.

[١٦] ذلك ما كان توجيهاً قرآنياً كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (ال عمران: ٦٤)، وقوله ﷻ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ (النحل: ١٢٥).

ومناقشتها، والحوار معها، فيما أصبح سُنَّة ثقافية ثابتة انطبع بها الفكر الإسلامي، وهي الصفة التي تُعدُّ أحدَ أهم الأسباب التي أثرت بها العلوم وتطورت، وتأسَّست بها الوحدة الثقافية بين المسلمين على اختلاف ألسنتهم، وتباعُد أقطارهم.[١٧]

خاتمة:

إن مقاصد القرآن الكريم في البناء الفكري على النحو الذي وصفنا قد تمثَّلتها الأجيال الأولى من المسلمين فيما يشبه التلقائية بقوة الأثر القرآني في النفوس والعقول. وعلى أساس هذا البناء الفكري، انطلق المسلمون في إقامة العمران المعنوي؛ علوماً، ومعارفَ، وفنوناً، والعمران المادي؛ صناعةً، وزراعةً، وعمارةً. وقد بلغ العمران درجة من التقدُّم مشهودة، فلمَّا دبَّ الخلل في البناء الفكري، وأصابه من بين ما أصابه الخرافة والأحادية والمثالية الغالية، انعكس ذلك خللاً على العمران؛ إذ العمران هو ثمرة الفكر، فبدأ يتراجع حتى أصبح المسلمون بعد الريادة الحضارية في ذيل القافلة الإنسانية.

وحَري بالمسلمين اليوم أن يعيدوا النظر في القرآن الكريم من حيث مقاصده في البناء الفكري، سعياً إلى نهضة عمرانية مستأنفة؛ فإن تاريخ الحضارات في نهوضها وسقوطها يشهد بما للبناء الفكري من دور محوري في أسباب ذلك. ومن النظر في القرآن الكريم تتأسَّس القواعد المنهجية للبناء الفكري الذي يقوم على التحرر الداخلي من الأهواء والشهوات، والتحرر الخارجي من سطوة التقاليد والسلاطين والغوايات بأنواعها، ثم يقوم على صفات من الواقعية والحوارية والكلية والمقارنة النقدية.

وعلى هذه القواعد يتأسَّس العقل المسلم، فينطلق في إنجاز العمران منفتحاً على التراث من كسوب السابقين، وعلى كل العلوم والمعارف من نتاج الخالفين انفتاح التبيُّن الناقد، وغائصاً في بحر القرآن الكريم، يأخذ من مبادئه وقيمه وتوجيهاته في هذا الشأن ما يصنع به الإضافة الحضارية، ويمضي من هذا وذاك في ريادةٍ يُسهِم بها في تنمية العمران البشري وترشيده لتحقيق الشهادة على الناس، وهي شهادة لا تتم إلا بمنهجية في الفكر

[١٧] النجار، **دور حرية الرأي في الوحدة الفكرية بين المسلمين**، مرجع سابق، ص٧٥-٧٩.

تشبه أن تكون ثورة على السائد، كما كان الفكر الإسلامي الذي أنجز الحضارة المشهودة ثورة على ما كان سائداً من فكر الخرافة، والتهويم المجرد، والانكفاء الغنوصي.

غير أن هذا الانعطاف في المسار الفكري الإسلامي ليس بالأمر الهيِّن الذي يحصل بالتلقائية، وإنما دونه عقبات يجب تذليلها، وخطوات يتعيَّن قطعها، وأسئلة تطلب الجواب عنها.

ويجب أن يصبح الوعي بضرورة هذا البناء الفكري وعياً عاماً لدى المسلمين، فكيف يمكن أن يحصل ذلك؟ وبعد حصول الوعي العام بضرورة هذا البناء الفكري في أسسه العامة، كيف يمكن أن تُضبَط التفاصيل لتأسيس نظرية متكاملة تكون هادية لسبل التنزيل؟ وبعد بناء النظرية يجب اتخاذ الإجراءات العملية اللازمة لبناء هذا الفكر الجديد، فما المسالك العملية –تربوياً، ودعوياً– اللازمة لتأسيس هذا الفكر؟ إنها أسئلة مفتوحة للدرس يتعيَّن البحث عن إجابات شافية لها ليقوم هذا البناء الفكري العمراني على أسس صحيحة.